

مع المصطفى الضحوك ﷺ

- ١- الضحوك القتال من أسماء النبي ﷺ .
- ٢- دفع التعارض بين أحاديث ضحك النبي وحزنه.
- ٣- المصطفى ﷺ يضحك ويبتسم في أحلك الظروف وأشدّها .
- ٤- موقف النبي من ضحك الاستهزاء .

مع المصطفى الضحوك ﷺ

لم يكن رسول الله ﷺ - كما ذكرنا سابقاً - خارجاً عن الفطر السوية في فعل من أفعاله ، أو قول من أقواله ، ولقد صدق الأعرابي حين سئل عن سبب إيمانه بمحمد ﷺ فقال : ما أمر بشيء واستقبحة العقل . ولا نهى عن شيء واستحسنه العقل .

إن العقول السليمة ، والفطر السوية ، والطباع المعتدلة ، والغرائز البشرية ، لا تعارض الدين ولا يعارضها الدين .

الضحوك القتال من أسماء النبي ﷺ :

ولقد عدد الإمام ابن القيم رحمه الله أسماء الرسول ﷺ وذكر منها «الضحوك القتال» ثم قال : وأما الضحوك القتال فاسمان مزدوجان ، لا يفرد أحدهما عن الآخر فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين ، غير عابس ولا مقطب ولا غضوب ، ولا فظ ؛ قتال لأعداء الله ، لا تأخذه فيهم لومة لائم^(١) .

وقال أيضاً : وأما صفته ﷺ في بعض الكتب المتقدمة بأنه «الضحوك القتال» فالمراد به أنه لا يمنعه ضحكه وحسن خلقه إذا كان حدا لله وحقا له . ولا يمنعه ذلك عن تبسمه في موضعه ، فيعطي كل حال ما يليق بتلك الحال فترك الضحك بالكلية من الكبر والتجبر وسوء الخلق ، وكثرته من الخفة والطيش ؛ والاعتدال بين ذلك^(٢) .

والمأمل لوصفه ﷺ الذي جمعه كتاب السير والشمائل والصفات والأخلاق ؛ بل والحديث والتفسير ؛ يجد أنه ﷺ كان أميل إلى الضحك والتبسم ؛ تماشياً مع الفطرة التي فطر الله عليها البشر .

(١) انظر : زاد المعاد ، مرجع سابق ، ٩٤/١ .

(٢) انظر : هداية الحيارى ، ابن القيم ، ط الجامعة الإسلامية المدينة المنورة ، ٧٥ /١ .

انظر إلى وصف جابر بن سمرة ، عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر ابن سمرة رضي الله عنه : أكنت تجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم كثيرا ، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه حتى تطلع الشمس ، فإذا طلعت قام ، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم ^(١).

وهذا جرير بن عبد الله يقول : ما حجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ، ولا رأني إلا تبسم في وجهي ^(٢).

وقد روى ابن عساكر عن أنس قوله : كان النبي صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس ^(٣).

وهذا كعب بن مالك يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه ؛ كأن وجهه قطعة قمر ^(٤).

وحين وصف هند بن أبي هالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في وصفه : وإذا ضحك غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ^(٥).

ويحاول البعض أن يمنع الضحك بحجة هموم الدعوة ، وهم الدين ، بيد أن هذه حجة واهية ، فلم يكن هناك ، ولن يكون من هو أكثر اهتماماً بالدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هناك من تعددت لديه الواجبات كما تعددت لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان أبى هو وأمي : إماماً للناس ، ومعلماً للخلق ، ومفقهاً للدين ، وحاكماً بين الناس ، وقاضياً بينهم ، ومجيشاً للجيوش ، وباعثاً للسرايا ، كما كان أباً رحيماً ، وزوجاً باراً ، وأخاً ودوداً ، وصديقاً وفياً ، ومع هذا كله فقد كان صلى الله عليه وسلم ضحاكاً بساماً ، وتؤكد ذلك السيدة عائشة فتقول حين سألتها عمرة قالت :

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٢) .

(٢) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٦٣١٤) .

(٣) رواه ابن أبي شيبه في مصنفه (٢١١/٥) والبيهقي في الشعب (٢٩٢/٦) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٩٣) .

(٤) رواه البخاري في المغازي (٤٤١٨) .

(٥) رواه الطبراني في الكبير (١٥٥/٢٢) والبيهقي في الشعب (١٥٤/٢) وقال الألباني في فقه السيرة ضعيف (٢٠٢) .

سألت عائشة كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في البيت ؟ قالت : ألين الناس بساما ضحاكا^(١).

وفي رواية عند الترمذي في العلل : عن عائشة أنها سئلت كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في بيته ؟ فقالت : كان ألين الناس ، وأكرم الناس ، كان رجلاً من رجالكم ، إلا أنه كان ضحاكاً بساماً .

ويقول أبو أمامة : « كان رسول الله ﷺ من أضحك الناس ، وأطيبهم نفساً »^(٢).

دفع التعارض بين أحاديث ضحك النبي ﷺ وحزنه :

وقد يظهر التعارض بين الأحاديث فيزيله قول الإمام السيوطي : « كان من أضحك الناس » لا ينافية خبر « أنه كان لا يضحك إلا تبسماً » لأن التبسم كان أغلب أحواله ، فمن أخبر به أخبر عن أكثر أحواله ؛ ولم يعرج على ذلك لندوره ، أو كل راوٍ روى بحسب ما شاهد ، فالاختلاف باختلاف المواطن والأزمان ، وقد يكون في ابتداء أمره كان يضحك حتى تبدو نواجذه ، وكان آخراً لا يضحك إلا تبسماً^(٣).

وتقول عائشة رضي الله عنها : ما رأيت النبي ﷺ مستجعماً قط ضاحكاً حتى أرى منه لهواته ؛ إنما كان يتبسم^(٤).

ويؤكد ذلك عبد الله بن الحارث فيقول : ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ^(٥).

(١) رواه إسحاق بن راهويه (٤٣٤/٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٣٨٦) .

(٢) رواه الطبراني (٢٠٨/٨) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفيه علي بن يزيد الألهاني ؛ وهو ضعيف (٥٧٨/٨) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٤٨٧) .

(٣) الجامع الصغير ، السيوطي ، ط دار طائر العلم جلة ، ص ٢٣٥ .

(٤) رواه البخاري في التفسير (٤٨٢٨) ومسلم في الكسوف (٨٩٩) .

(٥) رواه أحمد في المسند (١٧٧٠٤) وقال محققو المسند : حديث حسن . ورواه الترمذي (٣٦٤١) والبيهقي في الشعب (٨٠٤٧) وابن المبارك في الزهد (١٤٥) .

وفي رواية عن عبيد الله بن المغيرة سمعت عبد الله بن الحارث يقول : ما رأيت رسول الله ﷺ قط إلا متبسماً .

بل لقد كانت بعض المواقف تأخذ من رسول الله ﷺ كل المآخذ حتى يضحك ويستعلي به الضحك - ولكن ذلك على سبيل الندرة - فعن أبي أمامة قال : إن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : هل أصبح منكم اليوم صائماً ؟ فسكتوا فقال أبو بكر ؓ : أنا يا رسول الله . ثم قال : هل عاد أحد منكم اليوم مريضاً ؟ فسكتوا ، فقال أبو بكر ؓ : أنا يا رسول الله ، ثم قال : هل تصدق أحد منكم اليوم صدقة ؟ فسكتوا ، فقال أبو بكر ؓ : أنا يا رسول الله ؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى استعلي به الضحك . ثم قال : والذي نفسي بيده ما جمعهن في يوم واحد إلا مؤمن وإلا دخل بهن الجنة^(١) .

ولربما ضحك ﷺ من حدث عاماً كاملاً ، كما في قصة نعيمان^(٢) التي ذكرنا من قبل .

بيد أن هذا لم يكن هو الحال الدائم أو الصفة الملازمة ، وهذا ما يؤكد حديث جابر حيث قال : « كان لا ينبعث في الضحك »^(٣) . وكان لا ينبعث في الضحك أي لا يسترسل فيه .

ولله در صاحب كتاب (تأويل مختلف الحديث) حين قال : فلو ترك رسول الله ﷺ طريق الطلاقة والهشاشة والدمائة إلى القطوب والعبوس والزماتة ؛ أخذ الناس أنفسهم بذلك على ما في مخالفة الغريزة من المشقة والعناء ، فمزح ﷺ ليمزحوا ، ووقف على أصحاب الدركلة^(٤) وهم يلعبون فقال : « خذوا

(١) رواه البيهقي في الكبرى والطبراني في الكبير (٢٠٤ / ٨) وقال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وفيه كلام وقد وثق (١٦٣ / ٣) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٤٤ / ٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٥٦ / ٧) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٥٠٩) .

(٤) الدرّكلة بكسر الدال والكاف لعبة للعجم ، وضرب من الرقص أيضا .

يا بني أرفدة ليعلم اليهود أن في ديننا فسحة»^(١)، يريد ما يكون في العرسات لإعلان النكاح ، وفي المآدب لإظهار السرور .

وقد درج الصالحون والخيار على أخلاق رسول الله ﷺ في التبسم والطلاقة والمزاح بالكلام المجانب للقدح والشتم والكذب ؛ فكان علي ﷺ يكثر الدعابة . . . وكان ابن سيرين يضحك حتى يسيل لعابه .
وقال جرير في الفرزدق :

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزا ولو رضيت رمح استه لاستقرت
وقال الفرزدق وتمثل به ابن سيرين :

نبئت أن فساء كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول
أسنانها مائة أو زدن واحدة وسائر الخلق منها بعد مبطول

وسأله رجل عن هشام بن حسان فقال : توفي البارحة أما شعرت ؟ فجزع الرجل واسترجع ، فلما رأى جزعه قرأ ﴿ اللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ كُنَتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢).

وكان زيد بن ثابت من أزمّت الناس إذا خرج وأفكهم في بيته .
وقال أبو الدرداء : إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملها .

وكان شريح يمزح في مجلس الحكم .
وكان الشعبي من أفكه الناس .
وكان صهيب مزاحاً .
وكان أبو العالية مزاحاً .

وكل هؤلاء إذا مزح أحدهم لم يفحش ولم يشتم ، ولم يغتب ولم يكذب ، وإنما يذم من المزاح ما خالطته هذه الخلال أو بعضها ، وأما الملاعب فلا بأس بها في المآدب^(٢) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) انظر : تأويل مختلف الحديث ، ابن قتيبة ، مرجع سابق ، ٢٩٣/١ وما بعدها بتصرف .

المصطفى ﷺ يضحك ويبتسم في أحلك الظروف وأشدّها :

بل إنه ﷺ كان يضحك في أحلك الظروف وأشدّها ، وهو في ساحة القتال ، وفي ميدان المعركة ؛ ذكر ابن كثير في تفسيره : أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق ﷺ وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثنياه النقع ، ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيُزَمُّ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥) ، وقوله : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (الأنفال: ١١).^(١)

وروي عن جابر قال : كنا نصلي مع رسول الله ﷺ في غزوة بدر إذ تبسم في صلاته فلما قضى الصلاة قلنا : يا رسول الله رأيناك تبسمت ؟ قال : « مر بي ميكائيل وعلى جناحه أثر غبار ، وهو راجع من طلب القوم ، فضحك إلي فتبسمت إليه »^(٢).

هذا في غزوة بدر ؛ أما في غزوة خيبر فيحكى لنا عبد الله بن مغفل موقفاً خاصاً به أضحك فيه النبي ﷺ في هذه الغزوة : فعن حميد بن هلال عن عبد الله ابن مغفل قال : أصبت جرباً من شحم يوم خيبر ، قال : فالتزمته فقلت : لا أعطي اليوم أحداً من هذا شيئاً ، قال : فالتفت فإذا رسول الله ﷺ متبسماً^(٣).

ويبتسم أيضاً في حنين ؛ فعن سهل بن الحنظلية أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين حتى كانت عشية ، فحضرت الصلاة مع رسول الله ﷺ فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى اطلعت جبل كذا وكذا ؛ فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشياهم فتبسم النبي ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله »^(٤).

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ٢ / ٢٩٢ / دار الفكر بيروت ، ١٤٠١ هـ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) رواه مسلم في الجهاد (١٧٧٢) .

(٤) رواه أبو داود في الجهاد (٢٥٠١) ورواه النسائي في الكبرى (٥ / ٢٧٣) والحاكم في مستدركه

(٩٣/٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٨٣) .

وها هو ﷺ يتبسم عندما خفف عن زينب عذاب القبر ، فعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ فخرجنا معه فرأينا رسول الله ﷺ مهتما شديداً الحزن ؛ فجعلنا لا نكلمه حتى انتهينا إلى القبر فإذا هو لم يخلو من لحدده ، فقعد رسول الله ﷺ وقعدنا حوله ، فحدث نفسه هنيهة وجعل ينظر إلى السماء ، ثم فرغ من القبر فنزل رسول الله ﷺ فيه فرأيته يزداد حزنه ، ثم إنه فرغ فخرج فرأيته سري عنه وتبسم ﷺ فقلنا : يا رسول الله رأيناك مهتما حزينا فلم نستطع أن نكلمك ، ثم رأيناك سري عنك فلم ذلك ؟ قال : « كنت أذكر ضيق القبر وغمه ، وضعف زينب فكان علي ؛ فدعوت الله عز وجل أن يخفف عنها ففعل ، ولقد ضغطها ضغطة سمعها من بين الخافقين » (١).

كما أنه ﷺ يضحك يوم عرفة ؛ لكنه ضحك الرضا والفرح ، كما أنه ضحك التشفي من إبليس ، فقد روي عن العباس بن مرداس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ دعا عشية عرفة لأمة بالمغفرة والرحمة فأكثر الدعاء . فأجابه الله عز وجل أن قد فعلت وغفرت لأمتك إلا من ظلم بعضهم بعضاً . فقال : يا رب إنك قادر أن تغفر للظالم وتثيب المظلوم خيراً من مظلمته ، فلم يكن في تلك العشية إلا ذا ، فلما كان من الغد دعا غداة المزدلفة فعاد يدعو لأمة ؛ فلم يلبث النبي ﷺ أن تبسم . فقال بعض أصحابه : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ضحكت في ساعة لم تكن تضحك فيها ؛ فما أضحكك أضحكك الله سنك ؟ قال : « تبسمت من عدو الله إبليس حين علم أن الله عز وجل قد استجاب لي في أمتي ، وغفر للظالم ، أهوى يدعو بالثبور والويل ، ويحشو التراب على رأسه ، فتبسمت مما يصنع جزعه » (٢).

ثم إنه ﷺ يضحك قبيل الممات ، عن أنس بن مالك الأنصاري رضي الله عنه ، وكان تبع النبي ﷺ وخدمه وصحبه : « أن أبا بكر رضي الله عنه كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ

(١) رواه والطبراني في الكبير (١/ ٢٥٧) وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : إسناده ضعيف (٤٧/٣).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٦٢٠٧) وقال محققو المسند : إسناده ضعيف . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب (٧٤٢) .

الذي توفي فيه ، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسم يضحك فهمنا أن نفتن من الفرح برؤية النبي ﷺ ، فنكص أبو بكر على عقبه ليصل الصف ، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتوا صلاتكم وأرخى الستر فتوفي من يومه»^(١).

موقف النبي من ضحك الاستهزاء :

ولقد كان النبي ﷺ يقر أصحابه على ضحكهم ؛ إلا أن يرى مخالفة شرعية ، أو حرمة لله قد انتهكت فيزجرهم ﷺ ، فعن أبي سعيد الخدري قال : بعث رسول الله ﷺ علقمة بن محرز على بعث أنا فيهم ، حتى انتهينا إلى رأس غزاتنا أو كنا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش ، وأمر عليهم عبد الله بن حذافة ابن قيس السهمي وكان من أصحاب بلر وكانت فيه دعابة ، وكنت ممن رجع معه ، فنزلنا ببعض الطريق . قال : وأوقد القوم ناراً ليصنعوا عليها صنيعاً لهم أو يصطلون . قال : فقال لهم : أليس لي الطاعة ؟ قالوا : بلى . قال فما أنا بأمركم بشيء إلا صنعتموه ؟ قالوا : بلى ، قال : أعزم عليكم بحقي وطاعتي لما توابتتم في هذه النار فقام ناس فتحجزوا حتى إذا ظن أنهم واثبون ؛ قال : احبسوا أنفسكم فإنما كنت أضحك معكم . فذكروا ذلك للنبي ﷺ بعد أن قدموا فقال النبي ﷺ : « من أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه »^(٢) . وفي رواية ابن ماجه : « فإنما كنت أمزح معكم » .

وحين ضحكوا من كلام الأعرابي حين سأل عن ثياب أهل الجنة ، قومهم النبي ﷺ ، فعن جابر قال : « جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : ثيابنا في الجنة نسجها بأيدينا فضحك أصحاب النبي ﷺ ، فقال الأعرابي : لم تضحكون ! من جاهل يسأل عالماً ؟ فقال النبي ﷺ : « صدقت يا أعرابي ، ولكنها ثمرات »^(٣) .

(١) رواه البخاري في العمل في الصلاة (١٢٠٥) ومسلم في الصلاة (٤١٩) .

(٢) رواه أحمد (١١٦٣٩) وقال محققو المسند : إسناده حسن ، وابن أبي شيبة (٥٤٣/١٢) وابن حبان

(٤٥٥٨) وابن ماجه (٢٨٦٣) . وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٣١٢) .

(٣) رواه أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله

رجال الصحيح غير مجالد بن سعيد وقد وثق (٤١٥/١٠) .

وفي رواية عند البزار : قال : فقال الأعرابي : مم تضحكون ؟ من جاهل يسأل عالماً ؟ ! فقال النبي ﷺ : « لا ؛ ولكنها تخلق خلقاً ، أو تنشق عنها ثمار أهل الجنة » .^(١)

وهنا نلاحظ : أن النبي ﷺ تجاوب مع الأعرابي ، وأوضح له استفهامه .

وعن زر بن حبيش : أن عبد الله بن مسعود كان يجتني سواكاً من الأراك ؛ وكان دقيق الساق فجعلت الريح تكفهؤه ، فضحك القوم منه فقال النبي ﷺ : مما تضحكون ؟ قالوا : من دقة ساقه ؟ قال : « والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد » .^(٢)

ولهذا أمرهم النبي ﷺ بالوضوء تأدبا حين ضحكوا على الأعمى الذي وقع في الحفرة وهو يصلون ، روى الطبراني في الكبير عن أبي موسى قال : « بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس إذ دخل رجل فتردى في حفرة كانت في المسجد وكان في بصره ضرر ، فضحك كثير من القوم وهم في الصلاة ، فأمر رسول الله ﷺ من ضحك أن يعيد الوضوء ويعيد الصلاة » .^(٣)

يبد أن الحق يقال : إنهم كانوا وقت الجد هم الرجال ، يقول بكر بن عبد الله : كان أصحاب النبي ﷺ يتبادحون بالبطينخ فإذا كات الحقائق كانوا هم الرجال^(٤) .

(١) رواه أحمد (٧٠٩٥) وقال محققو المسند : إسناده ضعيف ، ورواه البزار . وقال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه البزار في حديث طويل ورجاله ثقات (٤١٥/١٠) .

(٢) رواه أحمد (٣٩٩١) وقال محققو المسند : صحيح لغيره ، وهذا إسناده حسن ، ورواه الطبراني في الكبير (٨٤٥٣) وابن أبي شيبة (١١٣/١٢) وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٥٠) .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه .